درجة من العراقة كباقي الأجناس الأدبية، وأن الأوان لم يحن بعد لتعريفه، ما دام في مرحلة التكون، ونحن إن كنا نتفق إلى حد معين مع فيليب لوجون (Philippe Lejeune)، في ما ذهب إليه من طرح حول تعريف السيرة الذاتية،باعتبار أنه رهين بما ينعقد من مواثيق للكتابة والتلقي بين أصحاب السير الذاتيةوقراء هذا اللون من الأدب، فإننا ننظر بكثير من الحذر إلى ما جاء به جورج ماي مطرح حول نفس المسألة، إذ هل بالفعل أن أدب السيرة الذاتية حديث العهد؟ وأن مكمن الصعوبة في وضع تعريف له متمثل في هذه الحداثة؟

:ثم إننا نتفق مع عبد القادرالشاوي، لكن ليس من باب الافتراض؛ بل من باب القناعة الراسخة، خاصة وأن الإشكاليةالأساسية لأدب السيرة الذاتية منطوية في تعريفه من خلال النصوص الممثلة له؛ فهل نحن فعلا أمام مشروع بحث لا غنى لباحثي ودارسي جنس السيرة الذاتية عنه؟

إننا نرى على وجه اليقين أن دراسة مختلف السير الذاتية بعمق نظري و منهجي كفيلة بوضع تعريف عام لهذا الجنس من الكتابة الأدبية، ومن باب اليقين كذلك لا من باب الافتراض نستطيع أننخلص إلى تعريف السيرة الذاتية العربية والإسلامية إن نحن اعتمدنا في دراسة مايمثلها من نصوص عمقا نظريا ومنهجيا سليما.

فهل السيرة الذاتية جنس أدبي يروي الإنسان من خلاله نكرياته الشخصية، متحدثا عن حياته أكثر مما يتحدث، بالقدر الضروريلفهم جملة من الأحداث، عن حياة غيره من الناس؟ أم أنها حياة إنسان يكتبهابنفسه؟

ثم هل بلغ تحديد ماهية السيرة الذاتية هذه الدرجة من الصعوبة، حتى صارتعريف هذا اللون من الأدب من قبيل المستحيل؟

هل السيرة الذاتية حكي استرجاعي نثري، يتولى إنجازه شخص واقعي، مركزا على وجوده الخاص وحياته الفردية؟ أم هي كل نص مكتوب، سواء أكان عملا أدبيا أم دراسة فلسفية، يعبر من خلاله الكاتب عن حياته الفردية؟ أم أن السيرة الذاتية عملية إعادة بناء أدبية لحياة إنسان، يتولى نفسه القيام بها، أم إنها المسار الحيوي الذي عاشه الفرد الكاتب في سياق تسلسلي متنوع الوجودي والحياتي المختزن؟

ثم هل يمكن أن نعتبر أدب السيرة الذاتية الفن الأول للذاكرة، تكشف من خلاله الذات حياتها مسترجعة ماضيها على نحو مباشر وبشكل صريح؟ وأنه سيرة يكتبها الإنسان عن نفسه، سارد أصداء ما انطوت عليه مختلف أدوار حياته الفردية؟

أم أنه مؤلف، مختلف من حيث المادة و المنهج عن المذكرات واليوميات، يروي الكاتب في ثناياه حياته بقلمه، أم أنه أدب يضم رأي صاحبه في الحياة وأبرز الأحداث التي عاشها، ويرسم الكاتب، الذي يمثل محور هذا الأدب، في تضاعيفه صورة البيئة الأولى وتحولاته من طور حياتي إلى آخر؟

وهل تمثل السيرة الذاتية ذلك الأدب الذي ينحصر في تجارب صاحبه، ولا يضاف إليه أي تجربة أو حادثة من الخارج قد تحجب عنا حقائق الذات الكاتبة؟ أم أن هذا اللون من الأدب هو عبارة عن كتابة الإنسان تاريخه الذاتي الشامل والمستوعب لأيام طفولته، وشبابه، وكهولته؟ وهو حديث ذكي عن النفس وليس حديثا ساذجا عنها، ولا هو عملية تدوين لمآثرها و مفاخرها؟ أم أن هذا الأدب تعبير عن أهم تجليات الحياة الفردية لمنشئه، ونتاج لا ينسلخ باطنه عن ظاهره؟ ووعاء لأصدق حياة ذاتية يستطيع أن يكتبها الإنسان؟

ثم هل يمثل أدب السيرة الذاتية فن الحديث عن الذات بحسناتها وسيئاتها، وتفاعلها مع البيئة والوسط الاجتماع؟ وهل يصح النظر إلى هذا الأدب على أنه محكي ذاتي

معاش، تتولى الشخصية المعنية به إنجازه عن ذاتها دون وسيط؟ وعلىَ أنه يعتمد في أساسه الفني على الانتقاء والترتيب لإعادة بناء أدبية خاصة بالذات الفردية لصاحب السيرة، مع مراعاة نموٍ وتطور هذه الذات؟ أم أن السيرة الذاتية تجسيد لما يكتبه الإنسان من تاريخ حياته من خلال تسجيل حوادثها ووقائعها المؤثرة في مسار الحياة، مع تتبع تطورها الطبيعي من الطفولة، مرورا بطور الشباب، ثم انتهاء بمرحلة الكهولة؟ ثم هل السيرة الذاتية شكل أدبي للتاريخ؟

وهل هذا اللون من الأدب يندرج ضمن الفنون الأدبية الأكثر حرصا على النقل الأمين لحقيقة الإنسان، وعلى تحري الصدق في ما يعكسه من حياته الفردية الخاصة؟ أم أنه تركيب أدبي مستحدث للذات، وعملية بناء جديدة لشخصية تتجاوز صاحبها؟ثم هل من المنهجية العلمية أن نتفادى أي حديث بشأن شكل معين أو أسلوب محدد وحيد ينفرد به جنس السيرة الذاتية؟

هل السيرة الذاتية هي الأوراق الشخصية والسرية لمؤلفها؟ وأن هذه السمة هي التي مكنتها من تحقيق التميز بين مختلف أجناس الأدب ؟أمأنها تسجيل استعادي صادق ومقصود لعمر من الخبرات، والأفعال، والتفاعلات، وتأثيراتهاالفورية والبعيدة المدى على الشخص؟ ثم هل صحيح أن المنطلق الأساس في دراسة أدبالسيرة الذاتية، يتمثل في البحث عن المنظور الذي يتم به استرجاع الوقائع، وتتبين فيضونه الأحداث الغنية بدلالاتها، ومن خلاله تتعين مواطن الصمت ذات الصلة الوثيقة بماهو مسكوت عنه من الخطاب المقموع، وتتميز فضاءات الحديث بالمباح من الخطاب.

هذهجملة من الأسئلة والتساؤلات التي تجري في فلك جنس السيرة الذاتية، والتي تحمل فيطياتها الكثير من الإجابات والعديد من صفات وملامح هذا الجنس الأدبي بوجه عام، ومما لا شك فيه أن ما ينجز من الأبحاث والدراسات النقدية حول جنس

السيرة الذاتية سيؤديحتما إلى إعادة النظر في ما يحكم هذا الجنس الأدبي من قوانين، بقدر ما سيرتقي به،خاصة وقد غدا جنس السيرة الذاتية ساحة للنقاش النظري الأدبي حول موضوعات لا يخلوأحدها من أهمية.

لقد سقط عدد من الباحثين و نقاد أدب السيرة الذاتية في خطأكبير عندما جعلوا "السيرة الذاتية" اصطلاحا مرادفا ومطابقا لمصطلح "الترجمةالذاتية"، ولم يميزوا بين الاصطلاحين، وهذا خلط اصطلاحي واضح لم يعرفه العربالمسلمون قديما، ونحن نتساءل باستغراب عما إذا كان العرب المسلمين القدماء حقا لايميزون بين لفظ "السيرة " ولفظ "الترجمة" وأنهم كانوا يوظفون كلا اللفظين بمعنىواحد، هو: (حياة الشخص بصفة عامة)؟!

إن هذا الاعتقاد الذي لا يقوم على أساس سليم ثغرة في منظومة المفاهيم الخاصة بجنس السيرة الذاتية لا سبيل إلى تجاهلها،لهذا نرى من الضروري في البداية التذكير بما أورده ابن منظور في معجمه الكبير (لسان العرب) بخصوص لفظ "السيرة" ولفظ "الترجمة" أما "السيرة" فهي السنة، والطريقة،والهيئة، وأحاديث الأوائل، وهي الميرة، وفي التنزيل العزيز قول الله عز وجل: "سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ"، أي هيئتها الأولى، وأما "الترجمة" فهي نقل الكلام من لغة إلى لغة.

ثم إن لفظ "الترجمة" دخيل على اللغة العربية، وهو أصلامن اللغة الآرامية، ولم يكن لفظ "الترجمة" من بين الاصطلاحات الأدبية القديمة،المرتبطة بتاريخ الحياة الفردية، إلا في بداية القرن السابع الهجري، وذلك مع أبيعبد الله ياقوت الحموي

(574 - 626 للهجرة)، في مؤلفه: (معجم الأدباء)، والذي وظفه بمعنى مختصر حياة الفرد وكان أبو الفرج الأصفهاني المتوفى عام 356 للهجرة قد استعمل لفظ "الخبر" بصيغتي الإفراد والجمع.

إن المعاجم العربية القديمة لم تتخذ لفظ "الترجمة" مرادفا للفظ "السيرة"، في حين عمدت المعاجم الحديثة، بما فيها المعاصرة، إلى توظيفهما مترادفين وبنفس المعنى، أما القول بأن الذي فصل قديما بين مفهوميهما وحمولتهما الاصطلاحية هو مجرد توظيف اعتباطي حسبما يرى ماهر حسن فهمي،ومحمد عبد الغني حسن، على سبيل المثال، فهو استنتاج نرده على أصحابه، لأن التمييز بين الاصطلاحين لم يأت دون مراعاة الحمولة الدلالية لكل مصطلح على حدة، أو دون قصد وغاية؛ بل إن ثمة فوارق بينة ومحددة بين لفظي "الترجمة" و"السيرة"، تتجاوز منطق الاستعمال الاعتباطي أو ما جرت عليه العادة، وهي فوارق تم إغفالها من قبل معظمالباحثين ونقاد أدب السيرة الذاتية.

وإذا كانت هذه المسألة الاصطلاحية في الوقت الراهن قد تبدو لأول وهلة قضية جزئية متجاوزة، فإننا نعتقد، على العكس من ذلك تماما، بأنها مسألة تستدعي إعادة النظر والمراجعة، والظاهر أن العرب المسلمين القدماء قد حسموا في هذا الأمر، وذلك عندما استقر رأيهم على ضرورة التمييز بين مفهوم "السيرة" وما تعنيه "الترجمة"، أو بالأحرى بين لفظي: "السيرة" و"الترجمة"،سواء كانا للذات أم للغير، مع أن المتقدمين من أهل الأدب.والنقد العربي الإسلامي،لم يكونوا يلحقون صفة "الذاتية" أو "الموضوعية" بهذين الاصطلاحين.

صحيح أن لفظ "الترجمة" لم يعرف بمعنى أو بمفهوم (المختصر من حياة الفرد) إلا عند المؤلفينالمتأخرين، لكنه لم يكن يدل عند القدماء من الأدباء والنقاد العرب المسلمين على "السيرة الذاتية"، أو "السيرة الموضوعية/ الغيرية "، وإنما قصدوا به "الترجمةالذاتية "، وعنوا به من جهة ثانية "الترجمة الموضوعية/ الغيرية "، وذلك باعتبار منيقوم بعملية الترجمة بطبيعة الحال.

وحتى نبرهن بقسط من الملاحظة والاستنتاج على ما نعتقده في شأن تمايز وتباين لفظي: "السيرة" و"الترجمة" لغة واصطلاحا، نقول: إن انتقال دلالة لفظ "الترجمة" مجازا من أصل معناها، الذي ارتبط قديما بعالم التأليف والآثار الأدبية وغيرها، إلى معنى التعريف بالأعلام ، مع احتفاظ اللفظ الدال طبعا بمدلولاته الأصلية: هو التحول الذي يفيدنا في تمييز حد "الترجمة" عن حد "السيرة"،باعتبار أن مدار الحد الأول (حد الترجمة) هو الاختصار أو الإيجاز، بخلاف مدار الحد الثاني (حد السيرة) وهو الإسهاب.

لقد كانت ترجمة الكتاب تعني التعريف به من خلال عنوان، أو فقرات قصيرة، أو من خلال فاتحة خاصة بالكتاب، وقد جعل المؤلفون القدماء، على سبيل المثال، لفظ "الترجمة" مصطلحا دالا على معنى العنوان ابتداء من القرن الثالث الهجري.

ولا شك أن القصد من وضع لفظ "الترجمة" اصطلاحا هو الدلالة على: التقديم، والتعريف، والشرح، والتفسير، وإيضاح المبهم، والتعيين، والتسمية، والإفصاح كذلك، وجميع هذه المعاني والمدلولات نصادفها في تراث الأدب العربي الإسلامي ضمن سياقات مختلفة.

ثم إن ترجمة الكتاب وترجمة الكاتب تعني: التعريف بهما، وتقديمهما إلى جمهور القراء دون إطالة أو إسهاب، أو ترك أي معلومة مبهمة وغامضة تشوب هوية الأثر الأدبي أو الشخص، ومن ثم فإن لفظ "الترجمة" قد تمت استعارته من عالم الكتب والمصنفات، حتى يدل كذلك على التعريف بالأحياء والمتوفين من أعلام الأدب، والتاريخ، والطب، والفكر، والفلسفة، وغيرهم.

ومن مقاصد اصطلاح "الترجمة" سواء كانت ذاتية أم موضوعية، التاريخ المقتضب للأعلام.

وبالإضافة إلى عناية المترجم بذكر اسم، وكنية، ولقب، ونسب الذي يترجم له، نجده يعتني كذلك بذكر عقيدته، ويثبت تاريخ ومكان ولادته، ثم يذكر من أخذ عنهم العلم، ويسرد أهم مراحل حياته، ثم ينتهي إلى ضبط تاريخ وفاته إن كان من المتُوفين.

فهذا ابن أبي أصيبعة في ترجمته لعدد غير قليل من قدماء الأطباء في مؤلفهعيون الأنباء في طبقات الأطباء)،ينهج الخطوات التالية:

أولا: يذكر اسم المترجم له و نسبه.

ثانيا: يوجز الحديث عن المجال الذي نبغ فيه.

ثالثا: يسرد الأسماء التي أخذ عنها المترجم له صناعة الطب، والأماكن التي تلقن فيها هذه الصناعة.

رابعا: يسرد مزايا المترجم له و صفاته.

خامسا: يعرض أسماء الذين عاصرهم من ذوي السلطان، والمكانة، والصيت الذائع.

سادسا: يثبت تاريخ و مكان وفاته.

سابعا: يذكر بعض أقواله المأثورة.

ثامنا: يعرض جملة من الآثار التي خلفها المترجم له.

ونهج ياقوت الحموي مسلكا في ترجمته لقدماء النحويين والأدباء العرب لا يختلف كثيرا عما التزم به ابن أبي أصيبعة من خطوات في تراجمه، بحيث آثر كل من ابن أبي أصيبعة، وياقوت الحموي مبدأ الاختصار والإيجاز في ترجمتهما لكثير من الأعلام، وكان قصدهما من وراء التزام هذا المبدأ، هو أن تجمع كل ترجمة موضوعية بين صغر الحجم وكبر النفع، مما يدل على أن الإيجاز وصغر الحجم

This document was created with Win2PDF available at http://www.daneprairie.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.